الفلسفة الأخلاقية عند الأمير عبد القادر الجزائري

د. بشير خليفي،
جامعة معسكر.

خصوصية الإنسان أنه الكائن الوحيد الذي يدرك حاضره، يستدعي ماضيه ويستشرف مستقبله، فالأبعاد الثلاثة تتشكل عنده داخل سياق يمده بالفرادة والتميز، بوصفه كائنا واعيا ومدركا لهذا الوعي.

والواقع أن حضور الإنسان وخصوصيته أثناء التعامل مع الوقائع تنظيرا وممارسة شكل دافعا أساسيا للمهتمين والمدققين بطرح جملة من الأسئلة يكون الإنسان محورها بالنظر إلى عسر القبض على لحظة الفهم النهائية التي تحدد لنا طبيعته وكذا حقوقه و واجباته.

وفق ما سبق تأتي مقاربة الأمير عبد القادر الجزائري (1808- 1883) كمحاولة لفهم الإنسان داخل سياق فلسفة جاءت معبرة عن حمولته المعرفية التي أدركها بكونه عارفا مسلما يمتح أفكاره من المدونة المعرفية للدين الإسلامي أولا، وثانيا مما اختبره على مستوى التأمل والمطالعة.

والحال أن الأمير على مستوى الفكر والممارسة عبر أشد تعبير عن خصوصية في فهم الإنسان في تعدديته بالرغم مما اعترى عصره من غياب كبير للدوافع الثقافية المؤججة للحراك، زاد وطأتها رغبة المستعمر الشديدة في إدامة التخلف.

الإنسان في نظر الأمير : شرف الخلافة في الأرض

يحتفي الأمير بتكريم الخالق عز وجل من منطلق شرف الخلافة في الأرض التي حازها الإنسان بصفات كينونية يفترق فيها عن الحيوان والنبات والجماد وتجعله مرتفعا في ملكوت

" العالم الرضواني والملأ الرحماني " (الأمير عبد القادر، د.ت : 210).

فالإنسان عند الأمير مخلوق يحوز على خاصية شريفة ممثلة في العقل تمكنه من التعرف على العالم الخارجي، وتساعد حواسه على الاستيعاب والتصويب في معرفة الأشياء، ولن يكون الإنسان قادرا على هذه المعرفة إلا إذا طلعت عليه أنوار التوفيق والهداية الربانية (الأمير عبد القادر، 1966 : 36).

لقد أقر الأمير بأن الإسلام جاء معليا ومعلنا تكريم الإنسان (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا / سورة الإسراء الآية 70) ومسقطا للفوارق بين الأجناس بالدعوة إلى وجوب العدل واحترام الآخر خصوصا " المخالف في الملة ".

و يرى أن الأحكام الشرعية في الدين الإسلامي جاءت معللة أساسا بمصالح الناس واللطف بهم بالشكل الذي يضمن أمنهم وسعادتهم بعيدا عن الدوغمائية والتوقف المستميت عند شكليات الأمور، من منطلق فكرة أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان وتدفع بالأحكام إلى وجوب كونها محايثة لمقاصد الشريعة في حفظ الإنسان أولا، مما يحيل إلى إمكانية اختلاف المصالح تبعا للأوقات " فتختلف الأحكام بحسبها كمعالجة الطبيب فإنه قد يأمر بشرب دواء خاص في وقت دون وقت "(الأمير عبد القادر، 1966 : 98).

المنارة للاستشارات

فلسفة الإنسان : القول والممارسة في المقاصد النافعة

الواقع أن الأمير اهتم كثيرا بموضوع الأخلاق فكرا وممارسة، واستمر هذا الاهتمام في نموه وتصاعده تماشيا مع المراحل التاريخية لسيرة حياته.

والملاحظ أن الاشتغال الفكري للأمير كان مرتبطا على الدوام بالبحث عن صفاء أخلاقي من خلال جلب الراحة النفسية والطمأنينة، في مقابل واقع متبدل عاشه الأمير في المجاهدة على مستوى الهوية ومبررات الوجود.

ومثال ذلك تأليفه للمقراض الحاد الذي عده دفاعا عن اتسام الإسلام بقيم المحبة والتسامح(الأميرة بديعة الحسني الجزائري، 2000 : 52).

وإلى هذا يضاف كتاب المواقف الذي يعد مدونة أخلاقية بامتياز، وذلك من منطلق أن الباطن

و الخفي في نصوص المواقف توحي بالجهاد، جهاد من نوع يحوز على الأهمية والخطورة، إنه الجهاد الأكبر المرتبط بجهاد النفس عن طريق التخلية والتحلية، خصوصا وأن جهاد العدو – في نظر الأمير – لا يكون خالصا إلا بجهاد النفس(الأمير عبد القادر، 2005 : ج 1، 209).

والظاهر أن الأمير قد ركز كثيرا على عنصر الأخلاق من زاوية اعتباره الأساس والمقصد الذي تبنى عليه مختلف المعاملات، مفرقا في ذلك على المستوى المفاهيمي، بين الخلق في عمومه بوصفه هيئة النفس وصورتها الباطنية التي يصدر عنها الوفاء والغدر والصدق أو الكذب (الأمير عبد القادر، د. ت :192)، وبين الخلق الحسن أي ذاك السلوك الذي يضفي صفة الاستحسان على الفعل الأخلاقي، خصوصا وأن قناعة الأمير الفكرية كانت تماهي الدين بالأخلاق ذلك أن دعوته إلى توحيد الله وتعظيمه كانت تتم من منطلق نظرته إلى الدين على أنه مصدر للأخلاق الحسنة(الأمير عبد القادر، 1966 : 97).

كما أن الممارسة الأخلاقية في نظر الأمير لن تتسم بأي معنى من دون ملكة المعرفة المتمثلة في قوة العلم، إذ أن الممارسة الأخلاقية من خلال العمل الصالح تقتضي من صاحبها أن يكون عارفا بخاصية ومقصد فعله، قادرا على التمييز بين " الصدق والكذب في الأقوال والحق والباطل في الاعتقادات والقبيح والجميل في الأفعال "(الأمير عبد القادر، د. ت: 193).

ولعل هذا ما يؤدي إلى امتلاك الحكمة التي بدورها تؤدي إلى تحقيق " الإنسان الكامل " على حد تعبير الأمير. وهذا التماهي بين العلم والعمل له مزاياه من زاوية تأهيل الفرد لكي يكون واعيا بفعله و مسؤولا عن تبعاته.

خصوصا وأن السلوك الحسن قابل للإدراك الخارجي ومرتبط بالغير في غالب الأحوال، زيادة على اعتباره وسيلة للسعادة التي يرى الأمير أنها نتاج خلق العدل منظورا إليها من زاوية البحث في أساس تحسين الفعل الأخلاقي ، فالأمير يقر بأن الخلق يشمل الوفاء والغدر وكذا الصدق والكذب، لكن سمة الأخلاق الحسنة في نظره نابعة من أساس ديني صرف، يهدف في نهاية المطاف إلى بلورة الاتصال بين الحقيقة والشريعة، وبالتالي الدعوة إلى توحيد الله وتعظيمه من منطلق نظري مفاده أن الدين لا يعقل إلا بوصفه مصدرا للأخلاق الحسنة (الأمير عبد القادر، 1966 : 97).

وينتقد الأمير التزمت عند ممارسة الخلق الحسن، إذ ليس الإنسان مطالبا بقمع شهواته في إطلاقيتها، حيث يقول الأمير : " ظنت طائفة أن السعادة في قطع

المنارة للاستشارات

الشهوة والغضب، ثم أقبلوا على المجاهدة على أنفسهم حتى أهلك بعضهم بشدة الرياضة "(الأمير عبد القادر، د. ت :26).

ويرى أن تصريف السلوك الحسن وممارسته كعمل صالح لن يتأتى إلا تحت سلطة أربعة شروط : قوة العلم والغضب والشهوة بحضور قوة العدل التي تحسن الفعل وتحقق فيه السمة الأخلاقية(الأمير عبد القادر، د. ت:192).

وتجدر الإشارة إلى أن نصوص المواقف تطفح بالدعوة إلى جهاد النفس، بهدف تنمية قدراتها مما يدل على أن انسحاب الأمير العسكري لم يمس الجانب الروحي الذي بقي وهاجا من خلال إشراقات روحية كانت تروم الصلاح في الحال و الفلاح في المآل على مستوى القول والفعل(الأمير عبد القادر، 2005 : 150).

وينبغي أن نقر أيضا بأن الفلسفة الأخلاقية للأمير نابعة بالأساس من ثقافته التي اجترحها من مطالعاته وحضوره مجالس العلم وكذا من المراحل التاريخية في نموها وتصاعدها، خصوصا وأن الأمير شهد كانسان – من خلال الوظائف المنوطة به ومواقفه اتجاه إشكالات الحياة – تقلبات عسيرة وحالات بالغة التعقيد، شكلت الفلسفة التي كان يحوزها ملاذا آمنا أعطى للأمير الطمأنينة والدعة من تقلبات العصر وأهواله(Yacine Kateb , 1983 : 17).

الآخر في نظر الأمير : الإنسانية زمن الحرب

رغم اعترافه في رسالة وجهها لأسقف الجزائر بأنه لم يولد ليكون محاربا، ولم يكن يتمنى هكذا مآل(Hani Abdelkader , 2004 :160)، ويتضح ذلك من خلال مدونة خطابه المعرفي التي تحيل إلى المحبة والجنوح للسلم من زاوية تفضليه لمعالجة المعضلات بالحكمة ومن منطلق أن الإنسان كائن عاقل، وكذا تمجيده للخلق الحسن الذي يعطي للإنسان مرتبة الرفعة؛ فإن ذلك لم يعن أن الأمير قد تبنى موقف الانسحاب في شكله النهائي. إنه لا يستمرئ مثلبة التعدي على حقوق الغير، ولا يعترف بأي مبرر لاستباحة دماء الآمنين، وفي مقابل ذلك لا يقبل أن يكون محلا للاحتقار والتهوين. هذا ما أبانت عنه شخصيته التي اتسمت بالتفهم والعزيمة ورفض الاستبداد.

وحتى يعطي لمقاومته بعدا روحيا كان في كل مرة يذكر جيشه بالأخلاقيات التي ينبغي أن تلازم المحارب من منطلق أن الحرب حل أخير، وممارستها لا يجب بأي حال من الأحوال أن تنفصل عن الفعل الأخلاقي في غاياته النبيلة. هذا ما دفعه إلى إيحاء وتصميم رسالته المعنونة بوشاح الكتائب(الأمير عبد القادر، 1968:25).

لم يكن الأمير يساوم في تبني أفراد جيشه للأخلاق الحسنة بالرغم من حملهم للسيوف والبنادق، إذ كان يشترط على جنوده " تصفية العقيدة وتطهير الإيمان "، بغرض المشاركة في الدفاع عن الوطن (Sahli Abdelkader , 1984 : 90).

إن الحرب في نظر الأمير شر معلن تجافي كرامة الإنسان وقدسية جوهره، خصوصا حينما تكون إمكانية الحل السلمي واردة، وليس المقصود منها – إن كانت كجهاد أو حرب مقدسة – في نظر الأمير " إتلاف العباد ولا تخريب البلاد ولا الرغبة في الأموال وإنما المقصود رفع ضرر الأمة المخالفة (..) ولو توهم حصول ذلك من غير قتال ولا دفع ما وجب القتال لأن الحكم يدور مع العلة وجوبا وعدما (الأمير عبد القادر، د. ت: 200).

المنارة للاستشارات

إن الوعي بهذه المحاذير جعلت من تاريخ الأمير أثناء الحرب مآثر بطولية نالت الإعجاب من الأعداء أولا، نظرا لتماهيها مع معاني الرجولة والصدق ودرئها للمكر والخديعة.

وقد شكلت أخلاقيات الحرب التي تبناها الأمير على مستوى القول والفعل ضمانا لتحاشي كل الرذائل- التي تبقى لصيقة بأي حرب- لا تجد مصوغاتها في مثل هذه المقاصد النبيلة.

فقد اشترط الأمير على جيشه ألا يقتل الصبيان والنساء وكذا الضعفاء وأهل الصنائع والمطيعين وكذا القسيسين والرهبان، بل ينبغي أن تسد لهم الحاجة بإعطائهم ما يكفيهم وعشيرتهم من اللباس والمعاش، كما لا يجوز القتل لأخذ أموال العدو، ولا يجوز القتل غضبا أو غيضا على العدو. بل وأكثر من ذلك " إن الأسير المسلم إذا سرحه العدو وشرط عليه عدم الإغارة ثانيا فعليه الوفاء "، " وإن قتل المسلم معاهدا فينبغي لأمير المسلمين قتله ولا يجوز العفو عنه "(الأمير عبد القادر، د.ت : 223).

وتصل المعرفة إلى أوجها، إلى ما يمكن لنا اعتباره اجتهادا أصيلا من لدن قائد عارف، وهي اللحظة المفارقة التي تتجمع فيها الدراية بكل معانيها، حين تتخذ الآخر المفارق في الملة صديقا ينبغي تقديره، ما دام ملتزما بحسن التعامل وأواصر المحبة.

وحتى في ظل التمكن من العدو، فإن معاملات المقدرة في نظر الأمير ينبغي أن تبقى قائمة في تصريفات جيشه الذي سماه بالجيش المحمدي الغالب في تعاملاته مع الأسرى وكذا المعاهدين من الأعداء " الذين ينبغي أن تؤمن حياتهم وحتى موتهم في بلاد الإسلام، فإن الضرورة تقتضي إرسال متاعهم وأموالهم لورثتهم وفي ظل غياب الورثة يرسل المال لبلادهم ولا حق للمسلمين فيه "(الأمير عبد القادر، د. ت :227).

شرف النظر العقلي : الإنسان كائن عاقل

يرى الأمير أن العقل جوهر وأصل، جوهر لأنه يمثل الخواص التي تميز بها الإنسان عن الحيوان وأصل لأنه مطلع العلم وأساسه.

وتكمن أهميته البالغة في نظر الأمير " أنه يعرّف الإنسان بعواقب الأمور ويقمع الشهوة"(الأمير عبد القادر، 1966 :86).

لقد أولى الأمير للعقل شأنا بليغا بالنظر إلى التماهي الحاصل بين أنسنة الإنسان واعتباره عاقلا، خصوصا وأن تأليفات الأمير الفكرية الأولى المتمثلة في كتاب المقراض الحاد وذكرى العاقل كانت معبرة عن هذا الاحتفاء.

فنظرية المعرفة عند الأمير في مرحلة تفكيره الأولى عقلية بالأساس، بالمعنى الذي يجسد حضورا غالبا للعقل في ضوء التمييز بين وسائل المعرفة العقلية والحسية، واعتبار العقل مسربا للتواصل، يقول الأمير : " إن نظر العقل أشرف من نظر العين المدركة للأصفر والألوان، لأن العين التي لا تدرك نفسها لا تدرك إدراكها " (الأمير عبد القادر، د. ت : 14).

وهذا ما تبنته تلك الفلسفات العقلانية التي راحت تنظر بعين الريبة إلى الحواس كمصدر للمعرفة في مقابل العقل، ولتبرير هذه الريبة يعطي الأمير دليلين اثنين : الأول مرتبط بخاصية القوة الحسية التي لا تدرك من الأشياء إلا ظواهرها، والثاني مفاده بأن البصر يخطئ ولولا العقل لما تبين خطأ البصر من صوابه.

ويفرق الأمير بين عقل نظري يرتبط بعالم المفاهيم والتصورات وآخر عملي ينظر في مسألة الممارسة على أرض الواقع(الأمير عبد القادر، 1966: 65).

المنارة للاستشارات

وطالما أن العقل خاصية إنسانية فإن الإنسان يحوز على شرف النظر العقلي الذي يمكن من الفوز بالمطالب العقلية، وبالتالي معرفة الصانع والوقوف على الأشياء بقدر الطاقة(الأمير عبد القادر، 1966: 24).

وفي هذه الفكرة الأخيرة نلمح تأثير ابن رشد في معرفة الصانع، وتأثير الكندي في الإشارة إلى علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان، هذا ما يبين أن الأمير كان مهتما بالفلسفة كموقف ومبحث وقد أشار إليها بوصفها حبا للعلم(الأمير عبد القادر، 1966 : 146).

وقد واصل تقديره للعقل في كتاب المواقف بوصفه مزية لكفل السداد في الشأن الدنيوي وباعتباره أيضا نعمة تجسد من خلالها مستوى التكريم الإلهي للإنسان(عشراتي سليمان، 2002 : 36).

الإنسان و العلم : شرف الثمرة وقوة الدليل

يقول الأمير :" لا شيء أقبح في الإنسان في إهمال نفسيته وتعريتها من فضيلة طلب العلم "(الأمير عبد القادر، 1966 : 39).

فالباحث عن المعرفة في نظر الأمير يستجلب المنفعة في سياقها النظري والعملي وكذا في بعدها الفردي والاجتماعي، بينما التقاعس عن طلبه يولد القبح النفسي والحرمان الأكيد من لذة العلم المثلى، إذ لا لذة فوقها من منطلق ارتباطها بالروح.

ويؤكد الأمير على شرف طلب العلم من زاوية أهميته المتمثلة في شرف الثمرة بالنظر إلى الحاصل المتأتي من الاستغراق في البحث والتأمل، وكذا قوة الدليل الذي يبرهن على اتسام الفرد والمجموع بهذه الخاصية إما من خلال محاججة وتأكيدات لمواقف أو منجزات تعبر عن الحاصل في التطور العلمي.

لا مشاحة أن الأمير يدرك أهمية العلم كمحصل للنهضة أو ما أصبح يعرف بالحداثة عبر قيمها المتعالية، خصوصا وأنه جسد هذا الحاصل المعرفي الذي منحه من جراء المجالسة والمطالعة في مدوناته المعرفية ومواقفه الإنسانية.

بل إن خطابه المعرفي حاز على نصوص أوجدت حضورها في سياق العلم بمعناه الباحث عن الدقة، وإن كانت أهم أسسه مستمدة من الخطاب التراثي، فيمكن القول بأنه قد شكل إرهاصا لميلاد خطاب علمي يحتاج إلى قابلية التحقق، وكذا خطاب فلسفي علمي ما يعبر عنه بالخطاب الابستمولوجي الذي يتمظهر من خلال الإرهاصة المتمثلة في إبراز القيمة.

ولم يفارق إرهاص الخطاب العلمي عند الأمير بحضور الإنسان، بل إن مختلف المواضيع العلمية التي عالجها خصوصا في كتابه المقراض الحاد ارتبطت بالإنسان إما بشكل مباشر أو ضمني، كحديثه عن تأثير الجغرافيا والمناخ في شخصية الإنسان من خلال نمط الاستجابة.

أما في كتاب المواقف فإن الأمير يستحسن مختلف العلوم ذات المقاصد النبيلة ويشير إلى ضرورتها في الدنيا، في مقابل علم حقيقي يحلق فوق كل إحالة موضعية تجعله رهينا للشبهة وليس ذلك كما يقول الأمير :" إلا في علم الأذواق الحاصل بالتجليات " (الأمير عبد القادر، 2005 : 279).

خطاب الإنسان : في التمكن والاقتدار

المنارة للاستشارات

الواقع أن ثمة إشراقات عديدة تبين اعتبار الأمير للإنسان كفرد يمتلك حقوقا وعليه واجبات تجعله مؤهلا لعمارة الأرض، وكمجموع في إحالة إلى الخطاب الإنساني الذي يدعو إلى التفاهم والتثاقف بين البشر.

وفهم الأمير للمسألة الأخيرة عائد في الأساس إلى حاجة الإنسان لغيره، إذ لا يمكنه أن يعيش منفردا من منطلق المعاش أولا، إذ ليس له أن يضمن كل ما يريد من مأكل وملبس في ظل تنوع الأعمال وتعدد المواهب والقدرات.

والأمير لا يحلم بإنسان طوباوي يحلق فوق الوقائع والأوضاع، وإنما يريده عاقلا مؤهلا لإدراك المعارف والحقائق، متسما بملكة الاستعداد على فعل الخير أو الشر من خلال امتلاكه لميزة الطهارة والطاعة وكذا الغضب والحقد والحسد(الأمير عبد القادر، د.ت : 93).

وهذا ما لا يتناقض مع فهم الإنسان الكامل الذي طالما احتفت به مدونة المواقف. فالكمال الإنساني في نظر الأمير مرتبط ببلوغ مرتبة التمكن والاقتدار – رغم وجود الاستعداد على فعل الخير أو الشر – بواسطة العرفان الذي يؤهل الفرد لامتلاك حقيقة اليقين.

وهذا ما يمكن ملاحظته بشكل أولي في شخصية الأمير نفسه، إذ قدمت له الإمارة بالنظر إلى مؤهلاته، زيادة على مكابدته لعذابات كثيرة لم تشكل بالنسبة له حاجز الإعاقة.

وتفسير ذلك عائد إلى الإيمان بالقضية والاقتناع العميق والجاد الذي أهل الأمير أن يكون مدافعا عن الحياة، مع الاستماتة في تبني خطاب حداثي منفتح، يرى في الإنسان المقصدية من الحياة، ويدعو إلى عدم انتهاك حقوقه وآدميته حتى حينما يقع هذا الإنسان أسيرا هو من جيش جاء لممارسة الغزو والانتهاك.

إن ممارسات الأمير تحيل إلى تلك المظان المعرفية التي استقى منها الأمير ثقافته، ما أهله أن يكون إنسانا مستنيرا يكتب عن الإنسان في شكله العام بكثير من المحبة والفهم، بل إن الشيء المميز عند الأمير هو إيمانه العميق بالوصول إلى مرتبة الإنسان الذي يحلم به كثير من الفلاسفة من خلال الجمع بين القول السديد والفعل السوي، وكذا إيمانه بضرورة المبادرة والاجتهاد ليكون الإنسان فاعلا مضيفا، خصوصا وأن الأمير لا يستمرئ تلك العبارة التي تقول :" ما ترك الأول للآخر شيئا " بوصفها مبررا للخمول والانسحاب، ويرى بالمقابل أن القول الصحيح هو " كم ترك الأول للآخر " لأن الجملة السابقة في نظره تقطع الآمال على زيادة العلم والفهم عن علم المتقدمين وفهمهم، بالاقتصار على ما قدمه الأوائل (الأمير عبد القادر، 1966 :129).

الإنسان الكامل: احتفاء بالتكريم الإلهي

يرى الأمير أن الإنسان الكامل هو العارف الذي يتسم بامتلاك حقيقة اليقين، لا يحيل هذا الفهم إلى اعتباره معصوما بل إن تقدير ذلك ينبني على أشياء عديدة تتأسس كلها على التماس الحق عن طريق تطهير النفس وإعدادها لقبول الإلهام الإلهي.

فالأمير يرى أن النفس في أصلها طاهرة شريفة بيد أن تجسدها جعلها تختلط بأدران المادة، وفعل " التخلية والتحلية " يرتبط بعملية استعادة الطهارة المفقودة عن طريق تقفي سمة الحق (السيد فؤاد الصالح، 1966 : 36).

بيد أن الإنسان الكامل في نظر الأمير لا يرتبط بالشطط والمباهاة بل إلى فعل مستمر في تصفية العقيدة و تقوية الإيمان عن طريق المجاهدة بالشكل الذي يحيل إلى

المنارة للاستشارات

تلك الصفات التي ينعت بها عباد الرحمن، والتي يتمظهر من خلالها الارتباط بين الذات المفارقة الحاضرة ومشتقاتها من الأفراد(Nicholson. R.A.1921 : 78).

كما يحيل الكمال أيضا إلى المرتبة التي يصل إليها الإنسان العاقل – باعتبار العقل نعمة يتجسد من خلالها مستوى التكريم الإلهي للإنسان كما يرى الأمير – والتي تجعله قمينا بتحمل المسؤولية.

وهذا ما يمكن ملاحظته في حياة الأمير نفسه إذ أن فترة الاعتقال على سبيل المثال لم تدفع الأمير إلى الاستسلام لليأس والقنوط، بل جعل من سجنه فرصة للاستزادة والتأمل محولا المحنة إلى منحة. وفي هذا السياق يرى الباحث سليمان عشراتي أن الإنسان الكامل حالة تجسدت في شخصية الأمير من خلال عذاباته الروحية ومكابدته للمحن هذا زيادة على اعتداله وإنسانيته العميقة.

الإنسانية عند الأمير : مدخل إلى حوار الحضارات

يرى الأمير أن الإنسان بحاجة إلى غيره من الناس بسبب التنوع الحاصل في تقسيمات العمل التي لا يستطيع الفرد لوحده أن يقوم بها، وكان لزاما أن يحضر علم القانون الذي ينبغي أن يضبط به الخلق، ويلزموا الوقوف على حدوده حتى لا يكثر النزاع.

ويحيل علم القانون إلى القوة العادلة وكذا وسائل الإقناع التي تؤهل الإنسان لكي يكون عضوا فاعلا في مجتمعه، قادرا على التعامل الندي مع المجتمعات الأخرى المختلفة في الدين واللغة، لذلك اقتنع الأمير بأن مسألة التواصل مع الآخر المختلف تحتاج إلى فكر وإلى لغة كوعاء لمضامين المعنى. فمعرفة لغة الآخر في نظره واجب ديني وإنساني صرف، يقول الأمير : " يتحتم على الإنسان أن يحوز القدرة على أن يعرف الآخر باللغة التي هي إما إشارة أو لفظ أو كتابة "(الأمير عبد القادر، 1966 :103).

ولم يكن الأمير متبنيا للذاتية كمنطلق صرف في أحكامه، بل كان ينظر إلى فحوى الحق و إلى مضمون القول وعلاقته بالواقع، لذلك يعد الأمير نموذجا للإنسان الحضاري على مستويات عديدة، إذ أن محاربته للعدو الفرنسي بالسلاح لم تنف تلك التعاملات الحضارية التي عبر بها الأمير عن وعي ونبل أخلاقي خصوصا وأنه قضى خمسين سنة في الحوارات والكتابات المتبادلة من أجل شرح قضيته وإثبات عدالتها (Hani Abdelkader , 2004 : 09).

وقد كان هاجسه في ذلك تحقيق الصفاء الأخلاقي الذي يبرر للإنسان كينونته ويجعله قمينا بأن يعبر عن مجتمعه ومعتقده، ليكون هذا الصفاء أرضية انطلاق لكل تقدم منشود، على اعتبار أنه لا مجال للحديث عن التأسيس والتأصيل من دون صدق يعطي للأمور نصابها. فالأمير كان صادقا ونزيها، إذ لم تدفعه الخصومة مع الجيش الفرنسي أن يستعمل الاستقراء في نوعه الساذج المثبط لكل معرفة تروم الاستمرارية، والدليل على ذلك شهادته لصالح علماء فرنسا الذين استعملوا العقل العملي، واستخرجوا بذلك الصنائع العجيبة والفوائد الغريبة (الأمير عبد القادر، 1966 : 65).

لقد أقر الأمير في رسالة أرسلها للأسقف ديبوش أنه لم يولد ليكون محاربا، لكن رهانات الواقع المتعددة ألزمته بحمل السلاح حينما انعدمت فرص الحلول الحكيمة التي تعطي للتداول في البحث عن المخارج أهمية كبيرة.

المنارة للاستشارات

لقد توصل الأمير بفضل المجاهدة في صعد مختلفة إلى وعي حضاري متعال جعله يعطي حضورا وافرا للعقل أثناء إصدار الأحكام، بل إن عبارته الشهيرة : " يلزم العاقل أن ينظر في القول ولا ينظر إلى قائله، فإن كان القول حقاً قبله سواء كان قائله معروفا بالحق أو بالباطل " (الأمير عبد القادر، 1966 : 31)، يمكن أن تكون مدخلا لحوار حضارات من خلال بناء أواصر الثقة والتركيز على مضمون الخطاب ومدى تحققه، بهدف الوصول إلى عولمة إنسانية ترفع من شأن الفرد وتعطيه أحقيته في الكينونة بدل التزمت الأعمى المولد للضغينة والمهدد للأنسنة.

إن خطاب الأمير الإنساني كان أخلاقيا بامتياز، فالأمير لم يتكلم عن الإنسانية بخطابات رنانة وبيانات بليغة وإنما أقر القول بالفعل، بداية من توليه الإمارة التي عرضت عليه عرضا، ووصولا إلى حله لمعضلات عويصة خصوصا ما تعلق بتلك الفتنة التي كان يمكن أن تؤدي إلى قتل وتشريد آلاف المسيحيين.

ويتجلى الخطاب الإنساني في شكله الوهاج من خلال فقه الجهاد الذي استوعب الأمير مقاصده في أنه دفاع عن النفس بطرق أخلاقية، لا ينبغي أن تنفصل ممارسته عن فكر سوي يأخذ على عاتقه تمثل خطابات العقل في مواءمتها مع الخطاب الديني السمح.

وهذا ما يمكن اعتباره نموذجا لتأصيل حقوق الإنسان، كحال معاملة الأسرى. والواقع أن الأمير لم يكن مهادنا في هذه المسألة، لقد كتب إلى أسقف الجزائر مطالبا إياه أن يرسل إلى الأسرى الفرنسيين كاهنا يسليهم ويخفف عنهم مصائب الأسر، وان يكتب ما يريدونه لعيالهم، هذا زيادة على سماحه للأسرى بممارسة شعائرهم الدينية (المرابط جواد، 1966 : 43).

بهذا صار من حق فكر الأمير، من منطلق المواءمة التي أحدثها في مفهوم القوة بين شده للقلم للكتابة التي مست صعدا كثيرة، وحمله للبندقية بغرض تحرير الوطن، أن يكون نموذجا للفكر الواعي الذي يتأسس على استراتيجيات مدروسة، وفي الوقت نفسه يعقد العزم على التجدد حين الاقتضاء، من منطلق تذكير الآخر بأن المسألة لا تتوقف عند حدود القوة العسكرية وإنما المقصدية من وراء الحياة برمتها حرمة الإنسان وضمان حقوقه ليتحقق فعل الكينونة بكثير من المحبة والاقتدار.

سؤال الإنسان : في أمداء الإمكان

الأمير مفكر استثنائي على طريقته، اقتنع بمسلكه، أحب مقصده واستغرق ليقدم واجبه ويبرر وجوده، إنه مثال حي لتلك الإرادة الوهاجة التي لا تسقط إلا مع آخر الأنفاس، والتي كان نتاجها لحظة واقعية تمثلت في دولة جنينية اتسمت بالتنظيم الجيد إداريا وعسكريا، وإرث فكري بالغ الأهمية في حقول معرفية متعددة، في ظل ظرف تاريخي اتسم بالتشرذم والانحطاط.

التركة هنا ذات أبعاد متعددة على صعيد الموقف الحضاري، الذي يمكن استدعاءه في أي لحظة، بل أننا في مسيس الحاجة إليه في حوار الحضارات والأديان (Bouamran Cheick , 2001 : 121)، خصوصا مع افتقار الحوار مع الآخر للندية وكذا شيوع ما يسمى " بالاسلاموفوبيا " نتيجة الدعاية الإعلامية التي وجدت سندا لها من ممارسات منحرفة و خاطئة.

المنارة للاستشارات

إننا أحوج إلى فكر الأمير بالشكل الذي يعطي الوجاهة في تسيير أمور السلم والحرب على مستوى الموقف والمعرفة مع إمكانية العمل الإستراتيجي لتحقيق مصالح أسمى.

خصوصا وأن الأمير لم يقابل معادلة الأنا والآخر بنكوص وانزواء، وإنما قام في البداية بتوطين أساليب المقاومة فكرا وممارسة، وذلك بتقديم خطاب معرفي يحصن من خلاله مواطنيه و يمدهم بالأمصال التي تساعد في الشحن والاستجابة، وكانت المسألة تأصيلا يدفع المقاوم إلى أن يشعر بالاعتزاز حينما يدافع عن قضية تعايش عمق وجدانه، ويملك لها كل القناعات المؤسسة التي تدفعه للمقاومة المستمرة بكل اندفاع وتحضر، بعيدا عن ذاك الخطاب الغارق في عزلته واغترابه، المحلق فوق معايير الواقع، هذا ما يتضح من جنوحه للسلم في وقت أدرك فيه استراتيجيا التفاوت في إعداد القوة.

لقد ناست حياة الأمير الفكرية بين قطبين تمثل الأول في استيعابه للحالة الصوفية كلحظة شاعرية استمرت منذ ميعة صباه، لتتأجج في المرحلة الثانية من تفكيره التي سعى فيها إلى تقليص مساحة الجراحات والأحزان التي خلفها فراق الوطن ورحيل الأم، من خلال تأملات تجلت نفحاتها في خطاب معرفي يحوز على كثير من الصدق والجمال.

بينما تجلى القطب الثاني في واقع مضن على مختلف الصعد، عانى فيه الأمير مجاهدات الأسر والكيد، وكان لزاما عليه أن يتعامل مع الرهانات التي فرضها عليه الواقع بكثير من الفاعلية والحصافة، هذا ما أعطى الأمير قوة إيمانية أهلته ليكون استراتيجيا بانتقاله من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر المتمثل في جهاد النفس.

إن حل الأمير للمعادلة الصعبة في إحداث المواءمة بين شاعرية الإبداع المتمثلة في الحضور الدائم لمظان التخليق المعرفي حتى في أحلك الظروف من خلال تزكية النفس وإبداع نصوص تهدف في غايتها القصوى إلى تمثل قيم الأنسنة من حق ومنطق وجمال على مستوى الفهم والممارسة.

وفي جانب ثان بين تلك الرهانات التي لا يمكن تجاوزها إلا من خلال تحليق معرفي ينطلق أساسا من فهم هذا الواقع واستيعابه، بغرض تحقيق الفاعلية في القول والفعل، وهذا ما يظهر من خلال منجزات الأمير في كل صنوفها والتي ما كان بامكانها أن تتم لو بقيت رهينة للواقع بمعناه الحرون.

إن هذه المواءمة تشكلت في ضوء البينية بين مجال يدرأ الاستغراق اللامحدود في الخطاب الشاعري، ومجال يفهم الواقع ثم يعمد إلى التعامل معه بالشكل الذي لا يرهن الممارسات الفعالة التي أوجدت عند الأمير القابلية للتحكم في إدارة آليات القول والفعل، وبالتالي إبداع خطاب حداثي تغلب عليه السمة الأخلاقية التي تأخذ على عاتقها تطوير أداءات الإنسان على مستوى الظاهر والباطن، بالشكل الذي يضمن حقوقه ويصون كرامته.

إلماعة أخيرة : الإنسانية عند الأمير وأسئلة الراهن

لقد طلب الأمير من المسلمين والمسيحيين الإصغاء إليه، والحال أن نماذج الحوار التي قام بها، وإنسانيته التي طالما عبر عنها على مستوى الموقف والكتابة، تقتضي استدعاء فكره بهدف درء الكثير من التطاحنات المفتعلة.

المنارة للاستشارات

إن فكر الأمير يذكرنا في كل مرة بمبادئ حقوق الإنسان كمجال للفهم والتطبيق، من زاوية السعي لإبقاء قيم التسامح والمحبة بين أفراد البشر، وحينما سئل الأمير عن الدافع الذي سعى من خلاله إلى درء الفتنة بالحفاظ على حياة المسيحيين في دمشق تحدث عن عفوية تصرفه التي ترتبط أساسا بأخلاقه كمسلم أولا ، و ثانيا لمقتضيات حقوق الإنسان .

لقد عمد الأمير إلى بناء الإنسان من الداخل بعيدا عن تلك البهرجة والطلائية التي أبانت عن نسبيتها الكبيرة، حينما اقتنع بأن المعركة المصيرية تتمحور حول الجهاد الأكبر الممثل في تصفية الخاطر ومراقبة السلوك حتى يتحكم الإنسان في نفسه ليحقق تلك الفاعلية في الأفهام والمواقف، هذا ما جعل من الأمير شخصية عالمية كرست لخطاب معرفي معمق للتجربة الإنسانية.

المصادر و المراجع

أ – بالعربية:

1- الأمير عبد القادر الجزائري، (1966) **ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**،تحقيق ممدوح حقي، مكتبة الخانجي، دار اليقظة العربية، بيروت، دط.

2- الأمير عبد القادر الجزائري، (دت) **المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد**، منشورات دار الحياة، بيروت، دط.

3- الأمير عبد القادر الجزائري، (2005) **المواقف ؛ في بعض الإشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف**، تحقيق عبد الباقي مفتاح، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة ن الجزائر، ط 1.

4 - الأمير عبد القادر الجزائري، (1968) **وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب**، كتابة : قدور بن رويلة، تقديم وتحقيق : محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

5- الأميرة بديعة الحسني الجزائري، (2000) **فكر الأمير عبد القادر حقائق ووثائق**،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط 1.

6- السيد فؤاد صالح، (1985) **الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د. ط.

7- المرابط جواد، (1966) **التصوف والأمير عبد القادر الحسني الجزائري**، دار اليقظة العربية، بيروت، د ط.

8- عشراتي سليمان، (2002) **الأمير عبد القادر المفكر ؛ مساجلات في قضايا اللغة والمعرفة وفقه الخطاب القرآني**،دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر.

ب – بالفرنسية:

9- Bouamrane Cheick (2001), **L'émir Abdelkader résistant et Humaniste,** édition Hamouda, Alger.

10- Hani Abdelkader(2004), **Correspondances de l'émir Abdelkader (1833-1883)** Edition Dar el Gharb.

11- Sahli M.CH(1984), **Abdelkader le Chevalier de la foi,** Enap , Alger.

12- Yacine Kateb(1983), **Abdelkader et l'indépendance Algérienne,** Société National d'édition et de diffusion, Alger.

ج – بالإنجليزية:

13- Nicholson. R. A (1921), **Studies in Islamic Mysticism,** Cambridge University Press, first published.

المنارة للاستشارات